المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

إقليم فزان خلال العصر الوسيط، دراسة جوانب من تاريخه الحضاري من خلال كتب الجغرافيا والرحلة

*خديجة بورملة[1]

[1]قسم العلوم الانسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، معسكر، الجزائر، جامعة مصطفى اسطمبولي

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على إقليم فزان الغني بتاريخه الحضاري خلال العصر الوسيط؛ وذلك من خلال الاعتماد على المصادر الجغرافية وكتب الرحلات، والتي تعد مصادر قيمة توفر نظرة شاملة للتطور التاريخي للإقليم. حيث تقدم وصفاً دقيقاً للبيئة الطبيعية والجغرافية لإقليم لفزان، كما تكشف عن بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية المهمة. وعلى الرغم من أن نصوص هذه المصادر قد تكون محدودة في بعض الأحيان، إلا أنها تمنحنا فهماً أعمق للتاريخ الوسيط لإقليم فزان، وتساهم في بناء صورة أكبر وأكثر شمولية له، فمن خلال تحليل هذه المصادر بعناية، يمكن للباحثين والمؤرخين بناء سرد تاريخي دقيق ومفصل لفزان خلال العصر الوسيط.

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية إقليم فزان خلال الفترة الوسيطية، وذلك مرتبط بأهمية موقعه الاستراتيجي على طرق قوافل الحج والتجارة، حيث اتخذه كل من حجاج المغربين الأوسط والأقصى، وكذا حجاج بلاد السودان نقطة عبور مهمة للوصول إلى بيت الله الحرام، وهنا نجد الكثير من الأوصاف لهذا الإقليم والمدن التابعة له بكتب الرحلة التي رصدت له نصوصا تاريخية تصف أهميته ومعالمه في إطار الوصف العام لطريق الذهاب والعودة.

نجد كذلك بعض الأوصاف الطبيعية والجغرافية للإقليم في كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين من أمثال: البكري والإدريسي وياقوت الحموي والحسن الوزان، والتي نستشف من خلالها أهمية إقليم فزان من الناحية الاقتصادية، بما يحمله من مقدرات طبيعية وزراعية جعلته مقصدا للقوافل التجارية، وبصفته يشكل حلقة وصل مهمة بين تجارة الشمال وحوض البحر المتوسط، وتجارة الجنوب وبلاد السودان، وعليه تسعى هذه الورقة البحثية إلى استقراء كتب الرحلة والمصادر الجغرافية الوسيطية للتعريف بهذا الإقليم واستبيان تطوره الحضاري خلال العصر الوسيط، بما توفره هذه الأخيرة من معطيات ومعلومات تبقى على جانب كبير من الأهمية باعتبار أن هذه النوعية من المصادر الوسيطية هي أكثر من سلط الضوء على إقليم فزان وتاريخه الوسيط.

الكلمات المفتاحية: الإقليم، زويلة، الفترة الوسيطية، فزان؛ كتب الرحلة، المدن، المصادر الجغرافية.

Fezzan Region in the Middle Ages: A Study of Its Civilizational History Through Geography and Travel Books

*Khadidja BOURAMLA[1]

[1]Department of Humanities, Faculty of Humanities and Social Sciences, Mascara, Algeria, University of Mustapha Stambouli

A B S T R A C T

This study aims to shed light on the Fezzan region, rich in civilizational history during the medieval period. By relying on geographical sources and travel literature, which are invaluable resources offering an overview of the region's historical evolution, it provides a detailed description of Fezzan's natural and geographical environment. These sources also reveal important economic and social aspects. Although the texts from these

* مؤلف البحث: عناوين البريد الإلكتروني khadidja.bouramla@univ-mascara.dz

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

sources may sometimes be limited, they allow us to gain a deeper understanding of Fezzan's medieval history and contribute to building a more comprehensive and holistic image of the region. By carefully analyzing these sources, researchers and historians can construct an accurate and detailed historical narrative of Fezzan during the medieval era.

Here, it is important to emphasize the significance of the Fezzan region during the medieval period, which was tied to its strategic position on pilgrimage and trade caravan routes. Pilgrims from the central and western Maghreb, as well as those from Sudan, made Fezzan a crucial transit point on their journey to the Sacred House. Travel literature contains numerous descriptions of this region and its cities, with historical texts highlighting its importance and characteristics within the broader context of the round-trip journey's description.

We also find some natural and geographical descriptions of the region in the writings of Arab and Muslim geographers such as Al-Bakri, Al-Idrissi, Yaqut Al-Hamawi, and Hassan Al-Wazzan. Through these descriptions, the economic importance of the Fezzan region can be discerned, thanks to its natural and agricultural resources, which made it a preferred destination for trade caravans. Moreover, it served as a crucial link between trade in the north and the Mediterranean basin, and trade in the south and the Sudan region. This study, therefore, aims to explore travel literature and medieval geographical sources to present this region and highlight its civilizational development during the medieval period. These sources provide valuable data and information, as this type of medieval documentation has shed the most light on the Fezzan region and its history during that time.

Keywords: Region, Zuwila, Medieval Period, Fezzan; Travel Literature, Cities, Geographical Sources

المقدمة:

خصص الجغرافيون والرحالة العرب والمسلمين حيزا كبيرا من كتاباتهم للتعريف ببلاد المغرب الإسلامي عموما، وللأقاليم التابعة لها على وجه الخصوص، ولذلك نجد بهذه النوعية من المصادر العديد من النصوص التاريخية التي نستطيع من خلالها التأريخ لهذه البلاد، وتبيان التطورات والأحداث التي عرفتها مدنها وأقاليمها طيلة الفترة الوسيطية، وذلك بواسطة جمع وتحليل المعطيات التاريخية التي وردت بهذه الكتابات على اختلاف أنواعها، من كتب للمسالك والممالك، كتب الجغرافيا العامة، المعاجم الجغرافية، حيث قدمت هذه المصادر أوصافا متعددة مست جوانب مختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، لكنها تتفاوت فيما بينها من جانب إلى آخر، ومن إقليم إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى بحسب أهميتها ودورها، وما تجمع عنها من معطيات ومعلومات وأخبار.

وموضوع "إقليم فزان خلال العصر الوسيط، دراسة جوانب من تاريخه الحضاري من خلال كتب الجغرافيا والرحلة" يندرج ضمن هذا الإطار أي محاولة للتعريف بهذا الإقليم وأهم المدن التابعة له، والتطور الحضاري الذي مر به خلال هذه الفترة، خصوصا وأن الدراسات حوله لا تعد كافية بسبب قلة المعلومات وشح المادة المصدرية، هذا إضافة إلى إهمال المصادر الإخبارية الحديث عن هذا الإقليم، والتي يفسرها أغلب الباحثين بغياب قيام دولة أو سلطة سياسية قوية بإقليم فزان خلال العصر الوسيط.

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

الهدف من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى جمع وتصنيف النصوص الجغرافية التي تؤرخ لإقليم فزان خلال العصر الوسيط، وتتبع التطورات التي مر بها، ومدنه الرئيسة، وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال استخدام المنهج الوصفي المناسب لمثل هذه المواضيع، ارتباطا بالمعطيات الجغرافية التي تعتبر في معظمها نصوصا وصفية.

أهمية الموضوع:

ومن هنا فإن الاعتماد على كتب الرحلة والجغرافيا لرسم صورة لإقليم فزان عبر تاريخه الوسيط يعتبر موضوعا في غاية الأهمية، فهذا النوع من المصادر – بخلاف المصادر الإخبارية التي تؤرخ مباشرة للدول والحكام وتهتم بالجانب السياسي أكثر من غيره من الجوانب – تحتوي على مادة تاريخية تمس ولو بصفة غير مباشرة الحياة العامة بإقليم فزان في إطار وصف المدن التابعة له والطرق الرابطة بينه وبين بقية أقاليم بلاد المغرب الاسلامي، وما نجده بها من معلومات يقترب أكثر من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان، وبالتالي تكمن أهمية هذا الموضوع في إلقاء الضوء على التاريخ الوسيط للإقليم باستغلال مختلف أنواع المصادر الوسيطية.

مشكلة البحث:

يطرح مثل هذا الموضوع العديد من التساؤلات عن الأوصاف التي قدمتها كتب الجغرافيا والرحلة لإقليم فزان أو بصيغة أخرى: ما هو حظ إقليم فزان في المؤلفات الجغرافية وكتب الرحلة ؟ وإلى أي حد يمكن لهذه المصادر أن تساعدنا في رسم صورة للحياة العامة بهذا الإقليم ؟

الدراسات السابقة:

على الرغم من الأهمية التي اكتسبها إقليم فزان عبر فتراته التاريخية المختلفة، إلا أنه يمكن القول بأن ما كتب حول تاريخه الوسيط يعتبر قليلا جدا مقارنة بأهمية الإقليم والدور الذي لعبه خلال هذه الفترة، وهو أمر يمكن تفسيره كما تمت الإشارة إليه سابقا بإهمال المصادر التاريخية الوسيطية عن إعطاء تفاصيل يمكن من خلالها التأريخ لهذا الإقليم، وهو ما انعكس سلبا على كم الدراسات التي وضعت حول تاريخه الوسيط، غير أن هذا لم يمنع الباحثين والمختصين عن سبر غور هذا الموضوع بدراسات كانت في جلها ترتكز على المصادر الجغرافية في البناء الموضوعي لها، والتي نذكر من بينها: الواحات ومحطات القوافل التجارية في إقليم فزان من دخول الإسلام إليها في (23-916 هـ/ 643-1510 م) لمريم الصغير عبد السلام المقطو، وهو مقال نشر بمجلة جامعة سبها للعلوم الانسانية، الفتح الإسلامي لفزان من سنة 22هـ/ 642 م حتى 64 هـ/ 684 م، وهو مقال لصاحبته لطيفة عمر حسين نشر بنفس المجلة، أبرز المظاهر الاجتماعية في إقليم فزان (ما بين القرنين الثالث-السابع الهجريين/ التاسع-الثالث عشر الميلاديين)، وهو عبارة عن مقال مشترك للباحثتين حنان العجيل فرج الغويل وسليمة بوعجيلة محمد المسماري، نشر بمجلة كلية التربية لجامعة سرت، وهي دراسات وأبحاث لها أهميتها في التعريف بالموضوع من جوانبه المختلفة.

وانطلاقا من نصوص المصادر الجغرافية وكتب الرحلة وما توصلت إليه الدراسات المعاصرة من نتائج بحثية حول التعريف بإقليم فزان وتاريخه الحضاري الوسيط، سأحاول من خلال هذه المداخلة هيكلة موضوع بحثي حول تحديد مجاله الجغرافي الوسيطي، والتعريف بأهم المدن التابعة له، وكذا محاولة الكشف عن التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها طوال الفترة الوسيطية.

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

1- المجال الجغرافي:

1-1- التسمية:

اتفقت الدراسات الحديثة على أن اسم فزان كان معروفا منذ الفترات القديمة باسم فزانيا (Phazania) وهي التسمية التي أطلقها الرومان على وطن الجرامانتيين الذين كانوا ينتسبون إلى قصبة بلادهم جرما (Garama)، ويحتمل أن يكون اسم فزان قد اشتق من كلمة تافسانا (Tafassena) ذات الأصل الطارقي، التي تعني الحافة لكثرة الحواف التي تميز مظاهر السطح بفزان، لكن سكان واحة غات من الطوارق ينطقونها "تافاسانا" (Tafassana) أو "تافاسنا" (Tafassanã)، والواقع أننا إذا حذفنا حرف التاء الأولى وهو علامة التأنيث في اللغة البربرية بقيت لدينا ثلاث أحرف ساكنة وهي (ف، ز، ن) (F.S.N) وهي الأحرف التي تتكون منها كلمة فزان [1].

وقد اختلف الدارسون في أصل الكلمة، فذهب البعض إلى أنها كلمة محلية اكتسبت الطابع اللاتيني حيث تداولها الرومان، على حين يعتقد الآخرون أن الليبيين تناقلوها بعد أن شاع استخدامها في الدوائر الرسمية في روما [2].

أما في الفترة الإسلامية، فقد احتفظ إقليم فزان بنفس التسمية، وهو ما أكدته في البداية كتب الفتوح والبلدان، بما تضمنته من نصوص تاريخية عن الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي، وهو ما أورده ابن عبد الحكم على سبيل المثال في معرض حديثه عن الفتوحات التي قادها عقبة بن نافع سنة ست وأربعين للهجرة، وفتح خلالها كل من سرت وودان ثم توجه إلى مدينة جرمة التي عرفها بأنها مدينة فزان العظمى، مشيرا كذلك إلى قصور سماها بقصور فزان افتتحها عقبة مباشرة بعد فتح جرمة صلحا، إضافة إلى قصر خاوار، وهو قصبة كُوار [3]، ويفهم من نصوص ابن عبد الحكم أن فزان بهذه التسمية كانت معروفة في كتب الفتوح بأنها إقليم جغرافي يقع إلى الجنوب من سرت وودان، وأن مدينة جرمة القديمة هي عاصمة الإقليم، وما والاها من مدن وقصور تابعة له.

وردت كذلك تسمية "فزّان" بنفس اللفظ عند الرحالة اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري/ 09 م، لكن للدلالة على التركيبة البشرية للمنطقة أولا ثم على الإقليم والمدينة التي يقطنون بها ثانيا، وذلك في قوله: « وجنس يعرف بفزان أخلاط من الناس لهم رئيس يطاع فيهم وبلد واسع ومدينة عظيمة» [4].

في حين يضبط ياقوت الحموي التسمية بالحرف والشكل، فيقول: « فَزَّانُ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب» [5]، وهو نفس الرسم الذي يذكره أبو الفدا في قوله: «وفزان بفتح الفاء، والزاء المشددة، وألف ونون، وقاعدة فزان مدينة زويلة» [6].

غير أن ياقوت الحموي –وهو الذي التزم في كتابه بمنهجية محددة في التعريف بالأعلام الجغرافية بأن يورد الاسم، ثم يوضح طريقة نطقه نطقا صحيحا، وقد يحاول تفسير اشتقاقه، ويتمثل بشواهد من الشعر– يعد الوحيد من بين الجغرافيين المسلمين الذي يعود بأصل تسمية "فزان" إلى فزان بن حام بن نوح عليه السلام، وأن الإقليم أخذ هذه التسمية نسبة إليه [7].

إذن نستشف من النصوص السابقة أن التسمية القديمة لإقليم فزان قد استمرت معه خلال العصر الوسيط، وأنها بدأت تظهر تقريبا منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ 09 م، مع أولى الكتابات التاريخية الوسيطية، ممثلة في كتب الفتوح والبلدان، وأن تسمية هذا الإقليم قد كانت حاضرة في محطات ومراحل سير الفتوحات الإسلامية، وهو غالبا ما كان يرتبط بمدن وأقاليم أخرى مثل برقة، سرت، طرابلس وغيرها، وأن هذه التسمية قد ارتبطت إما

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

بالمسمى الجغرافي للمكان نسبة للإقليم أو المدينة، أو ارتبطت بالمسمى الإثنوغرافي نسبة إلى ساكنيه أو التركيبة البشرية التي كانت غالبة عليه.

1- 2- الموقع:

أسلفنا سابقا كيف ارتبط ظهور مسمى فزان في أولى المصادر التاريخية الوسيطية بجملة من المدن والأقاليم، والمتفحص لهذه الكتابات وما جاء بعدها في كتب الجغرافيين خصوصا يجد بأن تحديد موقع هذه البلاد قد ضبط بنسبته إلى المواقع الجغرافية القريبة أو البعيدة، سواء باستخدام الاتجاهات، أو المسافات أو الوضع الاثنوغرافي.

ولنبدأ هذا التحديد مع أوائل الجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد المغرب، وتجولوا في أرجائها، ووضعوا لها أوصافا لشهود عيان عاشوا في المنطقة واختلطوا بسكانها، ألا وهو الرحالة والجغرافي ابن حوقل النصيبي الذي اعتبره الكثير من الباحثين الخبير الأول من بين جغرافيي عصره في شؤون المغرب، كما يعد كتابه من أحسن المصادر الجغرافية المشرقية التي أعطت أوصافا مفصلة لبلاد المغرب، وكان قد طعم هذه الأوصاف بالخريطة أو الصورة التي وضعها للمغرب، والمطلع على هذه الخريطة يجد بأن ابن حوقل وفي القسم الثاني من خريطته (انظر الملحق رقم 01) يضع فزان بالمقابل من مدينة طرابلس وفي أسفل الصورة، ويقرأ بينهما وادي الرمال أو قصر ابن أسود وعن يمين ذلك المحتنى أو حليما، ورسم عن يسار ذلك جبلا يقرأ عنده جبل نفوسه وسكانه الشراه [8]، أي أنه يحدد موقع فزان إلى الجنوب من مدينة طرابلس، وإلى الشرق من جبل نفوسة.

الملحق رقم 01: القسم الثاني من خريطة ابن حوقل لبلاد المغرب

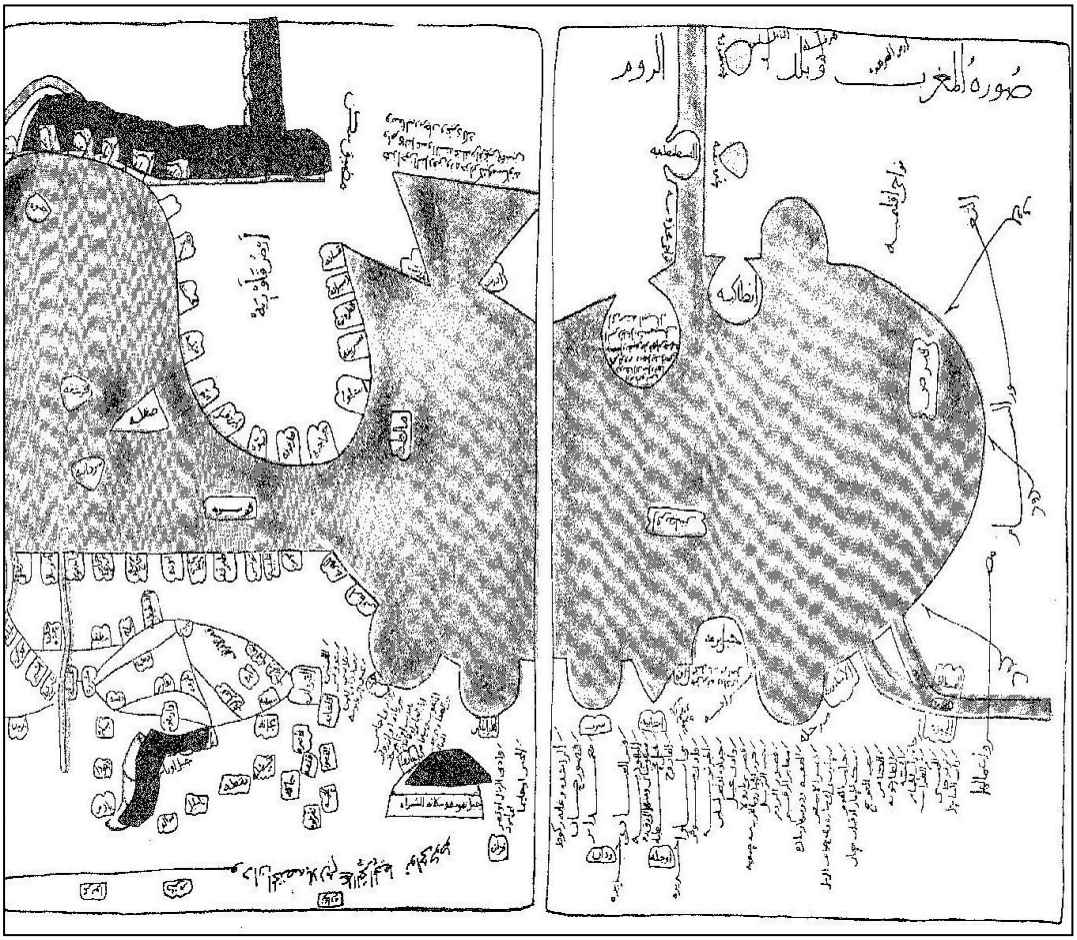

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

أما إذا أتينا إلى المعاجم الجغرافية فنجد كل من ياقوت الحموي في معجم بلدانه والحميري في كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، يعطيان وصفا عاما وتحديدا شاملا لهذا الإقليم، بأن وضعه الأول بين الفيوم ومدينة طرابلس كما سبقت الإشارة إليه في التسمية، ووضعه الثاني بين طرابلس وقابس [9]، وهو تحديد غير دقيق حتى أن الحميري يقر بذلك في تعريفه بالإقليم.

في حين نجد أن الإدريسي والذي يعد هو الآخر من بين أكبر وأهم الجغرافيين المسلمين، والذي قام بوصف العالم المعروف آنذاك، وقسمه إلى سبعة أقاليم على أساس التقسيم الجغرافي للعالم في العصور الوسطى، وتمثل القسم المعمور من الكرة الأرضية، وقد حدد الإدريسي تلك الأقاليم السبعة وقسمها بحسب درجات العرض، ثم قسم كلا من تلك الأقاليم إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق، وتبعا لهذا التقسيم وضع الإدريسي إقليم فزان في الجزء الثاني من الإقليم الثاني.

وفي هذا الشأن يقول الإدريسي: « إن هذا الجزء الثاني من الإقليم الثاني تضمن في حصته من الأرضين بقية صحراء نيسر وجملة أرض فزان بما فيها من المدن، وكذلك أيضا تحصل فيه جملة بلاد من أرض زغاوة السودان، وأكثر هذين الأرضين صحار متصلة غير عامرة، وجهات وحشة، وجبال حرش جرد لا نبات فيها، والماء بها قليل جدا لا يوجد إلا في أصل جبل أو في ما اطمأن من سباخها ...» [10].

ويواصل الإدريسي تحديده لهذا الإقليم، حيث يضع ما تبقى منه في الجزء الثالث من الإقليم الثالث، ويوضح أن هذا الإقليم يضم أكثر بلاد فزان [11]، كما يذكر بأن فزان تلي أرض زغاوة من السودان، وذلك في قوله: « ويلي أرض زغاوة أرض فزان، وبها من البلاد مدينة جرمة، ومدينة تساوة والسودان، يسمون تساوة جرمى الصغرى، وهاتان المدينتان يقرب بعضهما من بعض، وبينهما نحو مرحلة أو دونها ...» [12].

يحدد ابن سعيد المغربي هو الآخر موضع هذه البلاد بالنسبة إلى بلاد غدامس قائلا: « وفي شرقيها بلاد فزان، وهي أيضا جزائر نخل ومياه، ولها مدن وعمائر أكثر من ودان، ... وقاعدة فزان مدينة زويلة» [13].

وإذا كان ابن سعيد قد وضع تحديده هذا بالنسبة إلى المناطق الغربية لإقليم فزان، فإن الحسن الوزان مع أواخر العصر الوسيط، يصف هذه البلاد نسبة إلى المناطق الشرقية لها، وهو يضعها في البداية ضمن بلاد الجريد حسب التحديد الجغرافي الذي وضعه لكتابه، ويوضح بأن ساكنة هذه البلاد يجاورون كلا من أكدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر، على بعد مسيرة قرابة ستين يوما من القاهرة [14].

1- 3- المدن التابعة للإقليم:

إن المطلع على النصوص الجغرافية السابقة يجد بأن إقليم فزان قد ارتبط ذكره في كتب الجغرافيا والرحلة بعدد من المدن والواحات التابعة له -سنأتي على ذكر أمثلة عنها لاحقا-، وأن مدينة زويلة قد شكلت عاصمة لهذا الإقليم خلال الفترة الإسلامية، لذا سنقتصر على التعريف بهذه المدينة:

- **زويلة:** تعتبر هذه المدينة من أهم المدن التابعة لإقليم فزان، وقد اعتبرتها معظم المصادر الجغرافية عاصمة للإقليم، حيث يعرفها ابن سباهي بقوله: « بفتح الزاي المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت ولام وهاء ... قاعدة بلاد فزان، وهي جزائر نخيل ومياه وصحارى» [15]، ويصفها البكري بنوع من التفصيل قائلا: «وهي بجوفي مدينة أجدابية، وهي مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حد بلاد السودان، وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفقة من كل جهة منها، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم، وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالإبل ...» [16].

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

لكن يبدو أن المدينة قد فقدت دورها هذا زمن الإدريسي إذ يصفها هذا الأخير بالمدينة الصغيرة، وبأنها غالبا ما تتعرض لتحرشات القبائل العربية التي تجول في أرضها وتضر بأهلها قدر الطاقة[17]، ولعل ذلك يعود إلى ما عرفته المنطقة عموما من هجمات قبائل بن هلال وبني سليم، إضافة إلى بداية النهاية لأسرة بني الخطاب التي حكمت زويلة إلى غاية سقوطها سنة 568 هـ/ 1175 م.

غير أن هذا لم يمنع أن بقيت المدينة تلعب دورا هاما خصوصا على الصعيد الاقتصادي، ذلك أن موقعها الاستراتيجي الوسط الذي ربط أراضي السودان بحوض البحر المتوسط، كما ربط المغرب بمصر والمشرق عموما، مكنها من المحافظة على مكانتها ووزنها وأهميتها التجارية، حيث وصفتها المصادر اللاحقة وعلى رأسها كتابي الاستبصار والروض المعطار بالمدينة الكبيرة، وأنها تشكل مدخلا لبلاد السودان[18].

وهكذا يبدو أن مدينة زويلة قد اكتسبت أهميتها السياسية والاقتصادية، من أهمية موقعها وهي الأهمية ذاتها التي اكتسبتها المناطق الداخلية خاصة في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عند قيام دويلات معارضة للخلافة العباسية في كل من القيروان وتاهرت وفاس، وقد أثر هذا التغير في الخارطة السياسية على اقتصاد المنطقة وطرقها التجارية، وأعطت للطرق الداخلية أهمية أكبر، حيث كانت زويلة مركز الدخول إلى بلاد السودان، وكان ميناء مدينة اجدابيا المنفذ البحري لتلك التجارة ترد إليها المراكب بالمتاع والأمتعة، فضلاً عن مرور هذه التجارة عن طريق زويلة إلى مصر عبر الصحراء الليبية [19].

2- الوضع السياسي:

تورد كتب الجغرافيا بعض الإشارات العابرة عن الحياة السياسية بإقليم فزان خلال العصر الوسيط، وهو أمر لا يعاب على كتابها، ذلك أن اهتمامات أصحاب هذه الكتب كانت منصبة على الجوانب الطبيعية والجغرافية، وعلى تتبع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان؛ ولذا لا نجد بهذه النوعية من المصادر الكثير من المعطيات حول هذا الجانب، وإذا ما أشحنا بنظرنا عن النصوص التاريخية الموجودة بهذه المصادر عن الفتح الإسلامي لإقليم فزان في الفترة الممتدة من سنة 22 إلى 64 هـ/ 642-684 م، والتي غالبا ما ينقل فيها الجغرافيون والرحالة المسلمين الذين كتبوا عن هذه البلاد ما فصله ابن عبد الحكم في تتبعه لسير الفتوحات الإسلامية بالمنطقة، لا نجد الكثير مما يمكن استيقاؤه حول الوضع السياسي لإقليم فزان ما عدا فترة حكم بني الخطاب لهذه المنطقة واتخاذهم لمدينة زويلة عاصمة لمملكتهم، حتى أن أغلب الجغرافيين يسمون المدينة بزويلة ابن الخطاب، وأنها كانت تابعة في فترة من فترات تاريخها الوسيط إلى بلاد السودان وملوك الكانم على وجه التحديد.

أما فترة حكم بني الخطاب فنجد لها إشارة لدى الحميري ولعله ينقل عن الإدريسي، وذلك في قوله وهو يصف مدينة زويلة: « مدينة كبيرة قديمة في الصحراء بقرب بلاد كانم من السودان وأظنها التي يقال لها زويلة ابن خطاب، .... وكان بناها عبد الله بن خطاب الهواري وسكنها هو وبنو عمه سنة ست وثلثمائة، وهي منسوبة إلى هذا الرجل، وهي الآن عامرة» [20].

وأما فترة حكم ملوك الكانم لها فنجد إشارة عند ابن سعيد المغربي في معرض حديثه عن بلاد الجريد عموما وعن بلاد قسطلية وقاعدتها توزر، وكذا غدامس وودان وفزان وزويلة خصوصا، حيث يصرح بأن جميع هذه البلاد على عهده داخلة تحت طاعة ملك الكانم [21].

ويبدو أن التقلبات السياسية التي عرفتها فزان وعاصمتها زويلة بعد سقوط مملكة بني الخطاب، على يد قراقوش الغزي مملوك تقي الدين الأيوبي، وبعدما أصبح هذا الإقليم متنازعا عليه بين بقايا المرابطين من بني غانية

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

كطرف أول والموحدين كطرف ثاني، إضافة إلى تدخلات العرب، قد شجع الكانميين إلى الدخول إلى الإقليم [22] وضمه إلى مملكتهم ابتداء من سنة 656 هـ / 1258 م.

3- الوضع الاقتصادي:

تشير النصوص الجغرافية المدروسة إلى الطبيعة الصحراوية لإقليم فزان، وأنه مشكل من مجموعة من الواحات المتناثرة ما بين طرابلس وغدامس شمالا وبلاد السودان جنوبا، غير أن ذلك لم يمنع من تنوع النشاطات الاقتصادية لسكانه، إضافة إلى الأهمية التي اكتسبها باعتباره حلقة وصل بين العديد من الأقاليم والجهات الأمر الذي كان له انعكاسا إيجابيا على وضعه الاقتصادي.

3-1- الزراعة ومصادر المياه:

اتفقت معظم المصادر الجغرافية التي أشرنا إليها سابقا على إعطاء وصف مشترك لإقليم فزان والمدن التابعة له، على أنها جزائر نخل ومياه، وبالتالي فإن وفرة المياه الجوفية قد ساعد على انتشار بعض المحاصيل الزراعية التي أشارت إليها بعض النصوص الجغرافية، حيث يؤكد اليعقوبي على أن مدينة زويلة هي أرض نخل ومزدرع درة وغيرها [23]، كما يوضح الإدريسي هو الآخر عند وصفه لفزان والمدن التابعة لها مثل جرمة وتساوة حيث يقول عنهما: « وهاتان المدينتان يقرب بعضهما من بعض وبينهما نحو مرحلة أو دونها وقدرهما في العظم وكثرة العامر سواء ومياههم من الآبار وعندهم نخيلات ويزرعون الذرة والشعير ويسقونهما بالماء نكلا بآلات يسمونها انجقة وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة» [24].

غير أن المحصول الأساسي والرئيسي لهذا الإقليم يبقى التمور بمختلف أنواعها، وهو ما أكده جميع الجغرافيين والرحالة الذين زاروا المنطقة أو كتبوا عنها، موضحين بأن إقليم فزان والمدن التابعة له تمتاز بإنتاجها الوفير من التمور الرطبة، وذلك نظرا لشساعة بساتين النخيل التابعة لمختلف واحاتها.

3-2- المبادلات التجارية:

ما يمكن استنتاجه عن التجارة والطرق التجارية بهذه البلاد، وذلك بالرجوع إلى الكتابات الجغرافية، أن هذا الإقليم ومنذ فترة مبكرة من العصر الوسيط، قد شكل ملتقى لطرق تجارية عديدة كانت تخترقه من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق والعكس صحيح، وهو ما سيساهم بطبيعة الحال في نمو المبادلات التجارية له سواء مع بلاد السودان وسلعها المختلفة خاصة الذهب والعبيد، أو مع بلدان حوض المتوسط ومنتجاتها القادمة من كل مكان، أو مع بلاد المغرب وإنتاجها الزراعي والحرفي، وأخيرا مصر والسلع الشرقية من شبه الجزيرة العربية والهند والصين.

وهكذا وبالرغم من طبيعة إقليم فزان الذي كان يسوده المناخ الصحراوي والهضاب الصخرية والكثبان الرملية ومسطحات وعرة من الحصى، وتندر به الحياة النباتية، فإنه شكل منطقة التقاء طرق متعددة كانت تسلكها القوافل منذ أقدم العصور محملة ببضائع شتى لتمضي عبر الصحراء من الجنوب إلى الشمال؛ مما يتيح له سهولة الاتصال بحوض البحر المتوسط، والجدير بالذكر أن الإقليم يزخر بعدد من الواحات التي ساهمت في التواصل عبر أرجاءه وساعدت على تلطيف درجة الحرارة وقلصت من مساحة الأراضي القاحلة [25].

وهنا يمكن التنويه بنصوص البكري وهو الخبير في مسالك العالم الإسلامي عموما وبلاد المغرب الإسلامي على وجه التحديد، حيث يكتسي وصفه لمدن ومحطات ومسالك بلاد المغرب أهمية خاصة، حيث قدم لنا هذا الكاتب أوصافا موسعة للطرق والمسالك التي كانت تربط مختلف أقاليم المغرب الإسلامي، فكانت أصدق عرض وأحسن وصف لهذه البلاد في فترة ازدهارها خلال القرن الخامس الهجري / 11م، والمتصفح لكتابه المسالك والممالك، يجد به

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

جميع تفاصيل ومراحل الطرق والمسالك التي ربطت جميع مدن وواحات إقليم فزان ببعضها البعض، وكذا الطرق التي ربطتها بالأقاليم البعيدة.

تشير كذلك المصادر الجغرافية إلى بعض المنتجات التي كانت محل مبادلات تجارية سواء كانت داخلية أو خارجية، وخصوصا منتجات مدينة زويلة وهي الجلود الزويلية، وكذا الدرق اللمطية البيض التي بنتجها حسب اليعقوبي قوم لمطة الذين تقع بلادهم بين زويلة ومدينة كوار وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وأجدابية [26].

هذا إضافة إلى تجارة العبيد التي كانت سائدة في المنطقة بحكم قربها من بلاد السودان، وفي هذا يذكر البكري عن تجارة زويلة من هذه السلعة: « ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية افريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر» [27]، ويفصل اليعقوبي في أجناس العبيد المجلوبين من زويلة، فيقول: « ويخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم وهم يسبونهم، بلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب» [28].

4- التركيبة البشرية:

لا تسعفنا المصادر الجغرافية بالكثير عن الحياة الاجتماعية لساكنة إقليم فزان، سوى بعض الإشارات العابرة عن التركيبة السكانية لهذا الإقليم، والظاهر أن موقعه المتميز من الناحية الجغرافية لم يكن له تأثير مباشر فقط على الحياة الاقتصادية، بل كان له كذلك أثره على الحياة الاجتماعية وفي تنوع التركيبة البشرية له.

وكنا قد أشرنا سابقا إلى الموقع الوسط لإقليم فزان الذي عرضه لتأثيرات مختلفة، حيث ارتبط ببلاد المغرب الإسلامي حينا من الزمن حين سيطر عليه جماعة من بربر هوارة مؤسسين به دولة بني الخطاب، كما ارتبط بالجنوب حينا آخر بعدما وفدت عليه جماعات من السودانيين انتهت بسيطرة ملوك الكانم عليه، هذه التأثيرات كان لها وقعها في تكوين السكان، فإلى جانب البربر من السكان الأصليين وفد بعض البربر الآخرين من الشمال والغرب، كما وفد العرب من الشرق والشمال الشرقي، يضاف إلى ذلك أثر النشاط التجاري وبخاصة تجارة الرقيق التي كانت تمثل لونا مهما من ألوان تجارة سكان فزان لفترة طويلة من الزمن فلا غرو أن تكثر العناصر الزنجية التي اختلطت دماؤها بدماء السكان الأصليين [29].

الخاتمة:

وفي الأخير يمكن القول بأن معطيات النصوص التاريخية التي قدمتها الكتابات الجغرافية لإقليم فزان خلال العصر الوسيط، تعتبر على جانب كبير من الأهمية، حيث مست مباشرة الجوانب الطبيعية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية لهذا الإقليم، لكنها تعالج هذه المواضيع بشكل متفاوت، من ناحية لأخرى، إذ أنها أسهبت في التعريف بالإقليم والمدن التابعة له من الناحية الجغرافية، وكذا أوضاعه الاقتصادية خصوصا منها ما تعلق بالطرق التجارية وأنواع التجارات الرائجة به، في حين لا نجد بها الكثير عن تفاصيل الحياة الاجتماعية سوى تركيبته السكانية، وبعض طبائع وعادات ساكنته، لكن على الرغم من ذلك لا يمكن إنكار أهمية هذه النوعية من المصادر في ظل صمت المصادر التاريخية عن التأريخ لهذا الإقليم خلال الفترة الوسيطية.

النتائج والتوصيات:

إن النتائج المتوصل إليها بعد استخراج ودراسة النصوص التي أفردتها كتب الجغرافيا والرحلة لإقليم فزان خلال العصر الوسيط، وذلك ابتداء من النصف الثاني للقرن الثالث إلى غاية منتصف القرن العاشر الهجريين، يمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

*- نجد أن النصوص الواردة في المصادر الجغرافية، إذا ما قارناها ببقية المصادر التاريخية، هي نصوص متنوعة، وعلى جانب كبير من الأهمية يمكن من خلالها الإجابة عن بعض التساؤلات التي يطرحها الباحث عن التطور التاريخي والحضاري الذي شهده هذا الإقليم خلال العصر الوسيط.

*- اختلفت نصوص كتب الجغرافيا والرحلة في التدليل على تسمية إقليم فزان ما بين الإقليم الجغرافي والتركيبة البشرية، غير أن ما يمكن استنتاجه من هذه النصوص أن التسمية القديمة للإقليم استمرت متواصلة معه خلال الفترة الوسيطية؛ بدليل حضور هذا الإسم بكتب الفتوح التي تعد من أولى الكتابات التاريخية الوسيطية حول الإقليم.

*- أما بالنسبة للتحديد الجغرافي لهذا الإقليم، فإن الكتابات الجغرافية غالبا ما تقوم بضبط الموقع الجغرافي لأي منطقة نسبة إلى بقية الأقاليم أو المدن المشهورة المتاخمة لها، وهو ما ينطبق على إقليم فزان حيث تنسبه النصوص الجغرافية للأقاليم القريبة منه مثل: مصر، بلاد السودان، بلاد الجريد، جبل نفوسة، أو بنسبة موقعه إلى الجنوب من مدينة طرابلس.

*- ارتبط إقليم فزان في الكتابات الجغرافية والرحلية بالتعريف بأهم المدن التابعة له، ولعل أشهرها مدينة زويلة التي شكلت عاصمة له.

*- ارتبط كذلك اسم الإقليم في نصوص المصادر الجغرافية وكتب الرحلة والبلدان فيما يخص تطوره السياسي، بما نجده في هذه الكتابات من نصوص تصف مراحل الفتح الإسلامي له، وكذا فترة حكم بني الخطاب كأشهر سلطة سياسية تحمت في الإقليم لقرنين من الزمان.

*- أشارت النصوص الجغرافية إلى تنوع النشاطات الاقتصادية بإقليم فزان، خصوصا ما ارتبط منها بالإنتاج الزراعي ومحصول التمور باعتبار أغلب مدنه عبارة عن جزائر نخل ومياه كما تصفه كتب الجغرافيا، وكذا نمو مبادلاته التجارية سواء مع بلاد السودان وبلدان حوض البحر المتوسط جنوبا وشمالا، أو شرقا وغربا مع كل من البلاد المصرية وبلاد المغرب، وهذا مرتبط بموقعه الجغرافي الاستراتيجي الوسط الدي ربط مختلف هذه الأقاليم ببعضها البعض؛ مما أكسب إقليم فزان مكانة تجارية هامة عل الرغم من طبيعته الصحراوية.

*- في الجانب الاجتماعي لا تسعفنا المصادر الجغرافية وكتب الرحلة بالكثير من المعطيات حول هذا الجانب ما عدا بعض النصوص المقتضبة التي يمكن استخراجها من هنا وهناك عن التركيبة البشرية لسكان الإقليم.

وعلى الرغم من الدراسات والأبحاث التي حظي بها إقليم فزان حول تاريخه الوسيط الإسلامي سواء بالاعتماد على المصادر الجغرافية وكتب الرحلة أو غيرها من المصادر التاريخية الوسيطية، إلا أن تاريخ هذا الإقليم الفسيح لا يزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث، مع التوصية بضرورة إجراء تنقيبات أثرية حوله؛ وذلك بغرض تدعيم وإثراء الدراسات التاريخية، وتأكيد معطيات النصوص المصدرية.

1 - جمال الدين الدناصوري، 1967، جغرافية فزان، دراسة في الجغرافية المنهجية والإقليمية، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ص 11.

2 - نفس المرجع، ص ص 11-12.

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

3 – ابن عبد الحكم، 2004، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 222.

4 – اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، 2002، البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 184.

5 – ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، 1977، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، مج 4، ص 260.

6 – أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد، د.ت، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ص 127، ابن سباهي زادة محمد بن علي البروسوي، 2006، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عيد الرواضية، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص 494، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، 1955، مراصد الاطلاع على أسماء المكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج3، ص 1035.

7 – المصدر السابق، ص 260.

8 – ابن حوقل النصيبي أبو القاسم، 1992، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 67.

9 – الحميري محمد بن عبد المنعم، 1984، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، ص 440.

10 – الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي، 2002، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مج1، ص 109.

11 – نفس المصدر، ص 115.

12 – نفسه، ص 112.

13 – ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، 1982، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 127.

14 – الوزان الحسن بن محمد، 1983، وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي– محمد الأخضر، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ص ص 146–147.

15 – المصدر السابق، ص 367.

16 – البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، 2003، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ج2، ص 182.

17 – الإدريسي، المصدر السابق، ص 313.

18 – مؤلف مجهول، 1985، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 146، الحميري، المصدر السابق، ص 296.

19 – معمر الهادي القرقوطي، 2017، مدينة زويلة في فضائي الساحل والصحراء خلال العصر الوسيط، دراسة عن تطورها التاريخي وعلاقاتها بالمدن المجاورة، مجلة الأستاذ، العدد 12، ص 100.

20 – الحميري، المصدر السابق، ص ص 295–296.

21 – ابن سعيد، المصدر السابق، ص 127.

22 – احسين ادهيكيل علي ادهيكيل، 2022، الروابط التاريخية بين إقليم فزان ودولة كانم برنو 656-957 هـ/ 1258-1550 م، مجلة جامعة سبها للعلوم الانسانية، المجلد 21، العدد 2، ص 192.

23 – المصدر السابق، ص 183.

24 – المصدر السابق، ص 112.

25 – حنان العجيل فرج الغويل، سليمة بوعجيلة محمد المسماري، 2023، أبرز المظاهر الاجتماعية في إقليم فزان (ما بين القرنين الثالث –السابع الهجريين / التاسع – الثالث عشر الميلاديين)، مجلة كلية التربية– جامعة سرت، المجلد 2، العدد 3، ص 200-201.

26 – المصدر السابق، ص 183.

27 – المصدر السابق، ص 183.

28 – المصدر السابق، ص 183.

29 – الدناصوري، المرجع السابق، ص 56.

قائمة المصادر والمراجع:

– الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي، 2002، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

– ادهيكيل احسين ادهيكيل علي، 2022، الروابط التاريخية بين إقليم فزان ودولة كانم برنو 656-957 هـ/ 1258-1550 م، مجلة جامعة سبها للعلوم الانسانية، المجلد 21، العدد 2، ص ص 188-198.

– البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، 1955، مراصد الاطلاع على أسماء المكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

– البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، 2003، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

– ابن عبد الحكم، 2004، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

– الحميري محمد بن عبد المنعم، 1984، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت.

– ابن حوقل النصيبي أبو القاسم، 1992، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت.

– الدناصوري جمال الدين، 1967، جغرافية فزان، دراسة في الجغرافية المنهجية والإقليمية، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي.

– ابن سباهي زادة محمد بن علي البروسوي، 2006، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عيد الرواضية، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت.

– ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، 1982، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

– الغويل حنان العجيل فرج، المسماري سليمة بوعجيلة محمد، 2023، أبرز المظاهر الاجتماعية في إقليم فزان (ما بين القرنين الثالث –السابع الهجريين/ التاسع–الثالث عشر الميلاديين)، مجلة كلية التربية– جامعة سرت، المجلد 2، العدد 3، ص ص 197–213.

– أبو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد، د.ت، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت.

– القرقوطي معمر الهادي، 2017، مدينة زويلة في فضائي الساحل والصحراء خلال العصر الوسيط، دراسة عن تطورها التاريخي وعلاقاتها بالمدن المجاورة، مجلة الأستاذ، العدد 12، ص ص 97–109.

– مؤلف مجهول، 1985، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.

– الوزان الحسن بن محمد، 1983، وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي– محمد الأخضر، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

– ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، 1977، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

– اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، 2002، البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.